الحِجَاج في خطب البشير الإبراهيمي
بحث في الحجج النصية

د.نورالدين بوزناشة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى التركيز على حِجَاجِ الشيخ **البشير الإبراهيمي** الذي يعدّ رائد الحركة الإصلاحية بالجزائر،وذلك من خلال خطبه التي ألقاها في مناسبات متعددة سعى فيها إلى نصح النّاس وإرشادهم نحو الطريق القويم،وكذا الدفاع عن مقومات الأمّة الجزائرية التي أراد المستدمر طمس معالمها والقضاء عليها بضرب عقيدتها ودينها ولغتها، وذلك بمعيّة بعض أعوانه الذين جنّدهم لنشر الخرافات، وترسيخ فكرة الخضوع والتسليم بأنّ الجزائر قطعة فرنسية، وهو ما دفع الشيخ **البشير الإبراهيمي** إلى محاججة هؤلاء وتفنيد أباطيلهم، مستعينا بعدد من الحجج النصية التي أكسبت خطبه قوّة إقناع واستمالة للسّامعين.

الكلمات المفاتيح: الحجاج، الحجة، الإقناع، البشير الإبراهيمي، الاستدمار

Summary :

This article aims to focus on the Argument of Sheikh Bashir Ibrahimi, who is leader the reform movement in Algeria, through the speeches delivered on multiple occasions; he sought them to advise people and guide them towards the right path, as well as the defense of the elements of the Algerian nation that wanted colonizer obliterated landmarks and eliminate them by beating her faith, religion and language, and that together with some of his aides (the colonizer) recruited to spread myths, and the consolidation of the idea of submission and delivery that Algeria is a piece of French, which prompted Sheikh Bashir Ibrahimi to argue these and refute Their lies, using a number of text arguments that earned his sermons power to persuade and win over listeners.

Clef words: argumentation, argument, persuade, Bashir Ibrahimi, colonizer

تمهيد:

عرفت الجزائر في الحقبة الاستدمارية حملات كثيرة كانت تدعو إلى إلحاقها بالأرض الفرنسية الأم؛ حيث حاولت طمس معالم الأمّة بالقضاء على هويتها ودينها؛ فأغلقت المساجد، وضيقت على الجمعيات والعلماء وكان سندها في ذلك بعض أعوان المستدمر الذين جنّدهم لخدمة مصالحه، وفي مقدمتها ضرب عقيدة الأمّة من خلال نشر الخرافات حتّى صيّروها إلى الجاهلية الأولى.

أمام هذا الوضع المتردي والظلمة الحالكة برز نور من تحت هذه الأنقاض، يعيد الأمل لهذه الأمّة المستضعفة إنّه نور جمعية العلماء المسلمين التي جمعت ثلّة من العلماء المجدّدين، وهبوا أنفسهم لخدمة دين ربّهم ونشره وإعلاء كلمة الحق، يدفعهم في ذلك علمهم وإيمانهم بصدق دعواهم، ولعلّ أبرز هؤلاء العلماء وأنشطهم الشيخ **محمد البشير الإبراهيمي** الذي أخذته الغيرة على بني وطنه[1]؛ فكان يجاهد بالكلمة لأجل تبصير النّاس بدينهم وعقيدتهم[2]، وكان من نتاج نشاطه وحركيّته مع إخوانه أن أسّسوا جمعية العلماء التي رفعت حجاب الجهل عن الأمّة بالكشف عن دجل أعوان المستدمر، وهذا ما جرّ عليها نقمة الإدارة الاستدمارية، وكيد هؤلاء المتعاونين من خلال سجن أعضاء الجمعية، ونفيهم، وإغلاق مساجدهم، وصحفهم، وكذا محاولة اغتيال بعضهم، وعلى الرغم من هذا التضييق والحصار فإنّهم (أعضاء الجمعية) ظلّوا

[1]_ يصفه الفيلسوف **روجي غارودي** بأنّه: "الشّعلة التي بثّت في الجزائر ثورتها الثقافية"، الإبراهيمي العالم المجدد(مقال)، ضمن كتاب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة، الجزائر، ط2، 2007، ص140.

[2]- محمد الطاهر فضلاء، من جوامع الكلم لحكيم العلماء وعالم الحكماء (مقال)،ضمنكتاب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص389.

متمسّكين بدعوتهم الإصلاحية، وفي مقدمتهم الشيخ **البشير الإبراهيمي** الذي دخل المعركة مستلا لسانه الصارم، ومنطقه الحازم في محاربة أعداء الأمّة من المستدمرين وأعوانهم عن طريق خطبه ومحاضراته التي تنطق بالحجّة البالغة والرأي السديد.

تَمَيُّز الشيخ **البشير الإبراهيمي** في دعوته وحجاجه مرده إلى خلفيّته المعرفية الواسعة، فضلا عن امتلاكه لذكاء حاد، ومنطق سليم يبرز في استدلاله وحجاجه، وهو ما أهّله لأن يصير محاججا من الطّراز الأوّل، يقول تركي رابح: "ولعلّ من العوامل الهامّة التي ساعدت الشيخ على النجاح...غزارة علمه، وبلاغة قلمه، وقوة حجّته وفصاحة لسانه، ولباقته في الحديث إلى مستمعيه مهما كانت درجاتهم الثقافية والاجتماعية"[1] ، أمّا شاعر الجمعية محمد العيد آل خليفة فإنّه يصفه وصفا دقيقا بقوله[2] :

فأهلا وسهلا بالبشير متوَّجًا *** بتاج تحلَّى بالنُّهى وتَرَصَّعَا
إمارةُ عرفانٍ يسوسُ أمورَها *** أميرٌ على دَسْتِ البَيَانِ تربَّعَا
يواليه شعبٌ للعروبة ينتمي *** ويصبُو كما والى اليَمانونَ تُبَّعَا
يبايعُ قلبي قبل كفي عالماً *** على الملك أربَى قدرُه وترفعَا
تغذى من الفصحى بمحضِ لبانِها *** وشبَّ على آدابها وترَعرَعا

---

[1]- تركي رابح، البشير الإبراهيمي في المشرق العربي، مجلة الأصالة ، مجلة ثقافية تصدروها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر،ع18، سنة الثانية ربيع الثاني، جمادى الأولى 1392، ماي-جوان 1972، ص259.

[2]- محمد العيد محمد علي خليفة، شعراء الجزائر ديوان محمد العيد، الشركة الوطنية للشر والتوزيع، الجزائر،دط،دت، ص186.

انطلاقا من هذا الوصف سيكون محور بحثنا الحجاج في خطب **البشير الإبراهيمي من خلال تتبع الحجج النصية** في تلك الخطب،لكن في البداية نحدد مفهوم الحجاج والحجّة ثمّ علاقته (الحجاج) بالخطبة؛ حتىّ تتشكل لدينا رؤية واضحة عنه.

1_ مفهوم الحجاج والحجّة:

أ_ لغة: يطلق الحجاج على التخاصم والمغالبة بالحجّة، وهو ما يشير إليه أحمد بن فارس ضمن معجم المقاييس في اللغة بقوله: "يقال: حَاجَجتُ فلانا فَحَجَجْتُه؛ أي غلبته بِالحُجَّةِ، وذلك الظَّفَرُ يكون عند الخصومة والجمع حُجَج والمصدر الحِجَاج"[1]، ويراد بالحُجَّة في اللغة: الدّليل والبرهان[2].

ومن المعنى اللغوي ننتقل إلى التعريف الاصطلاحي للحجاج.

ب_ اصطلاحا:

يعرّف طه عبد الرحمان **الحجاج** بقوله:"أنّه كلّ منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوة مخصوصة يحق له الاعتراض"[3]، فتصوّره للحجاج مبني على أساس وجود نيّة الادّعاء عند المتكلم، ونيّة الاعتراض لدى المتلقي.

ويعرفه **بيرلمان(Perelman)** قائلا :"جعل العقول تذعن وتسلّم لما يطرح عليها من الأقوال، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان وذلك التسليم، فأنجع الحجاج وأنجحه ما

---

(1) – أحمد بن فارس، معجم المقاييس في اللغة، تحق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، دط، دت، ص 250.

(2) – ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، مادة (حجج)، م2، ص 228.

(3) – طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان أو التكوثرالعقلي،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1 ، 1998 ، ص 226.

وفّق في جعل حدّة الإذعان تقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على عمل المطلوب"[1]، فالحجاج إذا مرتبط بإذعان وتسليم السامع بالأقوال.

أمّا **الحجّة** فتعرّف بأنّها: "ما دلّ به على صحّة الدعوى"[2]، وهي تهدف إلى إثبات أو نفي تلك الدعوى، وقد تكون **الحجّة نصية**؛ فيراد بها: **الحجّة** التي تبرز على صعيد النص أو الخطاب كالقياس، والمثل، والشواهد النصية؛ كالقرآن والحديث والشعر وغيرها.

وهكذا نجد أنّ مفهوم الحجاج من خلال التعريف الأول والثاني يتجلى في: تقديم **الحجج** التي تؤدي إلى استمالة عقل السامع وإقناعه، وتلك هي غاية الحجاج التي تبرز في أشكال خطابية متعددة أهمها: الخطابة التي تعتمد **الحجج النصية**؛ لأجل تحقيق الإقناع، ولذلك سنتحدث عن علاقة الحجاج بها (الخطابة).

2_ الحجاج والخطابة:

اقترنت الخطابة منذ القديم بغرض الإقناع، وهو ما نلمحه في تعريف **أرسطو** لها بقوله: "الريطوريّة قوّة تتكلّف الإقناع الممكن في كلّ واحد من الأمور المفردة"[3]. ومن ثمة، يكون مجال بحث الخطابة الإقناع؛لأجل ذلك ألّف **أرسطو** كتابه "**الخطابة**" الذي نال شهرة كبيرة؛ تناول فيه الحجاج الخطابي وأركانه، ويعكس هذا

---

(1)_ Chaim Perelman et Luice Olbrechs- Tyteca, Traité de L'argumentation, Editions de Bruxelles, Belgique, 6 édition, 2008, P59.l'université

(2) – علي بن محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحق محمد عبد الرحمان مرعشلي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص145.

(3) – أرسطو طاليس، الخطابة،حققه وعلق عليه، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم،بيروت،لبنان، 1979، ص9.

الاهتمام دورها المهم في حياة المجتمع اليوناني، فهي صانعة الإقناع والتأثير في السامعين.

أمّا عند العرب فقد اتخذت الخطابة أداة نفعية لتحقيق أغراضهم في مقامات متعدّدة كالمنافرة، والمفاخرة والسلم والحرب، ومن ثمّ فهي ملازمة لحياة العربي[1]؛ إذ أنّها ترمز لديه إلى الشّرف والسّيادة،فضلا عن كونها وسيلة البيان والحجاج التي تحقق الإقناع، ولهذا صارت الخطابة _ مع مجيء الرسالة المحمدية _ أداة لبيان الشرائع والأحكام وللنصح والإرشاد؛ حتىّ غدت ركنا من أركان الدين؛ إذ لا تصح صلاة الجمعة إلاّ بها[2].

ومن هنا نلحظ أهمية الخطابة في إحداث الإقناع؛ فهي (الخطابة) "فن مشافهة الجمهور وإقناعه"[3]، وذلك راجع إلى بنيتها الخطابية التي ترتكز على ثلاثة عناصر أساسية تهدف إلى تحقيق الإقناع هي: الحجج (الحجاج)، والأسلوب وترتيب أجزاء الخطبة.وبناء عليه، فإنّ الإقناع هو القاسم المشترك بين الحجاج والخطابة.

ومن الحديث عن علاقة الحجاج بالخطابة ننتقل إلى الحديث عن خطابة الشيخ **البشير الإبراهيمي**.

3_ خطابة الشيخ البشير الإبراهيمي:

تميّز الشيخ **البشير** ببراعته الخطابية التي لفتت انتباه من عرفوه وسمعوه، يقول عنه يوسف القرضاوي واصفا إيّاه: "كان الشيخ إذا تحدث يتدفق كأنّه البحر الثجّاج،

---

(1) – شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، دت، ص27.

(2) – أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، مصر،ط4، 1972، ص218.

(3) – المرجع نفسه، ص 5.

ويتألق كأنّه السّراج الوهّاج، وأشهد أنّه شدّ الحاضرين جميعا ببيانه الناصع، وخطابه الرائع، وسعّة اطّلاعه على الأدب والتاريخ، واستشهاده بحكم البلغاء وروائع الشعراء ووقائع المؤرخين"[1]، ولعلّ تميز الشيخ في خطابته يعود إلى امتلاكه ناصية اللغة؛إذ "كان خبيرا بأسرارها،ضالعا في أساليبها، بارعا في فنونها وآدابها، له عليها سلطة وسلطان، تطاوعه كلّما عالج موضوعا من المواضيع، وتنقاد له كلّما اتّخذها أداة للمحاججة والجدال"[2]، فهو إذا تكلّم أفصح وإذا احتجّ أقنع،وهذا ما يؤكده جميل صليبا- أحد طلبة الشيخ البشير- بقوله: "من عجيب أمر الشيخ أنّ النّاس كانوا لا يهتمون به عند لقائه لأوّل مرّة، حتّى إذا تكلّم أو احتجّ، أو خطب ألهب النفوس حماسة، وجعل القلوب تشرئب إليه للاستمتاع بفصاحة لسانه وسحر بيانه"[3].

لقد اتّخذ الشيخ **البشير الإبراهيمي** الخطابة وسيلة للدعوة والإصلاح، فهي "ركن الإصلاح الركين"[4]لحال الأمّة الجزائرية التي عانت من بطش المستدمر الذي سعى إلى محو هويتها العربية والإسلامية؛ لأجل ذلك كانت الخطابة -عند الشيخ البشير-أداة للتأثير في الناس ونشر الإصلاح، وقد تميزت خطابته"بالطابع الأدبي والبلاغي

---

(1) - يوسف القرضاوي، مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي،المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، دار الوعي، الجزائر،ط1 2007، ص7.

(2) - بوعلام بالسايح، الشيخ البشير الإبراهيمي **الرائد (مقال)**،ضمن كتاب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه،ص60.

(3) - جميل صليبا، عن الشيخ البشير الإبراهيمي (مقال)، ضمن المرجع نفسه،ص57.

(4) - أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،دار الغرب الإسلامي،بيروت، لبنان،ط1، 1997، ص157.

واستحضار المحفوظات والشواهد، وكان مؤثرا في الخاصة أكثر من العامة، وهو يجيد النّكتة السريعة واللّمحة الدّالة"[1]، ولهذا نال شهرة في الداخل والخارج.

سنركز في هذا المقال على حجاج **البشير الإبراهيمي** من خلال الحديث عن الحجج النصية التي وظفها في تلك الخطب، وهنا ننوه إلى أن البحث اعتمد وجهة نظر البلاغة الجديدة ضمن التحليل، ومن هذه الحجج النصية الواردة في خطبه:

أ- **الحجج النصّية شبه منطقية**: تتميز هذه الحجج النصية بالطابع الابتكاري؛ حيث يكون للمتكلم دور في ابتكارها وإبداعها، ومن ذلك القياس الخطابي.

1-القياس الخطابي:

يعدّ القياس الخطابي آلية شبه منطقية؛تقوم على وجود مقدمتين كبرى وصغرى، وتستخلص منهما نتيجة ضمنية وهو يمثل أبرز الحجج المبتكرة، وأكثرها إقناعا وتأثيرا على السامع، وهذا ما نلمحه في حجاج خطب الشيخ **البشير الإبراهيمي**.

عرف الشيخ **البشير الإبراهيمي** بسعة اطّلاعه على علوم متعددة، وهو ما أسهم في تنمية رصيده المعرفي الذي كان له تأثير على أسلوب تفكيره ضمن خطبه وكتاباته، ولذلك لا يعدّ الشيخ خطيبا فقط بل مفكرا؛ يقول شكري الفيصل: "وفي تقديري؛ وفي تقدير الذين عرفوا الإبراهيمي في الميدانين (الخطابة والكتابة) جميعا أنّه لم يكن خطيبا فحسب ...ولكنّه كان مع ذلك وإلى جانب ذلك مفكرا من الطّراز الأوّل...وله

[1] -أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط1، 1998،ص109.

منهجه الفكري الذي يتميز به حين يطرح هذه القضـايا ويدلّل عليها"[1]،وقد أسهم هذا الجانب الفكري بإثراء خطبه وتميزها؛ إذ يشهد له كل من سمعه بقوة إقناعه[2].

سعى الشيخ البشير ضمن خطبه إلى تحقيق ثلاثة أهداف حجاجية، تمثل المحاور الكبرى التي تدور حولها هذه الخطب هي:

1-المحافظة على الهوية الجزائرية التي حاربها الاستدمار،2- إصلاح الديـن،3- المحافظة على اللغة العربية. وفي هذا الصدد يقول الشيخ **البشير الإبراهيمي**: "إنّ هذه الأمّة الجزائرية أمّة واحدة و لا كلام، ربّها الله وإمامها القرآن ونبيها محمد، ولغتها القرآن، ودينها الإسلام"[3].

وظف الشيخ **البشير الإبراهيمي** جملة من الحجج النصية، وخاصة شبه المنطقية منها تحديدا القياس الخطابي الذي يعدّ من أهم الحجج الإقناعية[4]؛ إذ نلحظ حضوره ضمن مواضع كثيرة في خطبه؛وذلك لأجل تحقيق الغايات الثلاث السابقة والتي تمثّل مقوّمات الأمة الجزائريّة.

نستهل الحديث بأولى هذه الغايات أو الأهداف والمتمثلة في:

1- **المحافظة على الهوية الجزائرية**: احتفل المستدمر بمرور مائة عام على احتلال الجزائر في1930 [5]، وقد استمرت تلك الاحتفالات مدّة ستّة أشهر؛ لتكشف عن

---

[1] - شكري الفيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي (مقال)، ضمن كتاب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص191.

[2] - محمد الغزالي،مع البشير الإبراهيمي في القاهرة (مقال)،ضمن المرجع نفسه،ص96.

[3] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص141.

[4] - أرسطو طاليس، الخطابة، ص 11 .

[5] - محمد زرمان، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، دط، دت، ص14.

حقده الدفين تجاه الجزائر؛ حيث دعا ساسته(المستدمر) في هذه المناسبة إلى القضاء على هويّة الجزائر الإسلامية وإلحاقها بفرنسا؛ لتكون الجزائر بذلك أرضا فرنسية[1].

لكن في مقابل هذا الاحتفال عرفت تلك السنة تأسيس جمعية العلماء التي حملت لواء النهضة الفكرية والقومية بالجزائر من خلال الحفاظ على ثوابت الأمة الجزائرية التي أراد المستدمر أن يقضي عليها، وذلك بواسطة دفاعها عن هوية الأمة الجزائرية ومقوماتها الشخصية، وهذا عن طريق الاهتمام برموزها و قدواتها؛ لأنّ أيّ أمة إنّما تحيا وترتقي بعلمائها الذين يمثلون قدواتها؛ ومن هذا المنطلق نجد الشيخ **البشير الإبراهيمي** ضمن خطبته التأبينية لذكرى وفاة المؤرخ الجزائري محمد بن شنب يربط الجزائر برموزها الذين حملوا لواء النهضة الفكرية والعلمية[2]؛ فاستحقوا بذلك التقدير والاحترام من الغرب والشرق، ولكن الاستدمار غيبهم بالجزائر يقول الشيخ **البشير الإبراهيمي**:"عرفك الغرب والشرق ولم تعرفك الجزائر حقّ المعرفة في حياتك"[3].

كان محمد بن شنب مثالا وقدوة في الأدب والعلم والتآلف[4]؛ وقد نعاه الرأي العام الجزائري والفرنسي بعد وفاته،وشهد جنازته النصارى والمسلمون،

---

(1) - المرجع نفسه، ص14-15.

(2) - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص48-49.

(3) - المرجع نفسه، ج1، ص49.

(4) - محمد بن شنب :عالم من علماء الجزائر ولد **بالمدية**، نشأ وتعلم فيها ثمّ انتقل إلى المدارس الفرنسية، أين أكمل تعليمه العالي ليصبح بعدها مدرسا فيها، توفي سنة 1929، عرف عنه مساهمته العظيمة "في خدمة التراث الجزائري والإسلامي عموما، فقد استعمل علمه وقدرته في البحث؛

يقول أبو القاسم سعد الله: "وفي خطبة التأبين قال عنه **مارتينو**:إنّ ابن شنب كان صورة للأديب المسلم الذي عرف كيف يطّلع على الأساليب الأروبية في العمل بدون أن يفقد شيئا من صفاته وعاداته،وإنّ أستاذه **باصيه** هو الذي كان يتولّى هدايته في العمل،وأنّ ابن شنب قد عرف لوازم النقد العلمي"[1]،ومن الغربيين من يجعله رمزا ومثالا للتآلف الفرنسي- الإسلامي[2].

ولهذا اهتم الشيخ **البشير الإبراهيمي** بتلك القامة العلمية، إذ نجده في خطبته التأبينية يوظف حجّة القياس الخطابي من أجل رسم ملامح شخصية محمد بن شنب المتميزة، والتي تعد قدوة يحتذى بها أو حجّة يمكن للمخاطب أن يتأثر بسلوكها وخصالها، ذلك أنّ المجتمعات لا تسير إلاّ بقدوات تمهد لها الطريق[3].

ولهذا اختار الشيخ **البشير الإبراهيمي** الحديث عن محمد بن شنب؛ ليكون قدوّة لأبناء وطنه في التعلق بالأرض والمحافظة على الهوية الجزائرية الإسلامية من خلال أخلاقه وأعماله التي تمثل سرّ نجاحه وشهرته[4]، ولذلك نجد الشيخ **البشير الإبراهيمي** يركز في خطبته التأبينية على أخلاقه وخصاله الحميدة، وأساسها المحافظة بقوله:"ذلك أنّ الرجل محافظ والمحافظة ألزم ما يكون لنهضة"[5]، نلمح في هذا

لتسليط الضوء على آثار الماضيين من الجزائريين والعرب والمسلمين"،أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، من ص169 إلى ص 171.

(1) - المرجع نفسه، ج8، ص172.

(2) - المرجع نفسه، ج8، ص172.

(3) -ChaimPerelman et LuiceOlbrechs- Tyteca, Traité de L'argumentation, P 471

(4) - ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص48-49.

(5) - المرجع نفسه، ج1، ص46.

القول حجّة القياس التي أراد بواسطتها التأكيد على محافظة محمد بن شنب، ويمكن توضيح ذلك عن طريق المبيان الآتي:

المقدمة الكبرى: المحافظة ألزم للنهضة
المقدمة الصغرى: الرجل محافظ

النتيجة (الضمنية): إذا الرجل صاحب نهضة

وهنا نلحظ أنّ النتيجة قد ضمنت في المقدمة الكبرى التي يسلم بها المخاطب، وقد جرى فيها الانتقال من حكم عام (المحافظة ألزم للنهضة) إلى حكم خاص (الرجل صاحب نهضة)، وبذلك يكون **الشيخ البشير الإبراهيمي** ينتقل من مقدمات إلى نتائج مقنعة، تجلت في كون المحافظة سبيلا للنهضة، تلك المحافظة التي ترتكز على المبادئ والقيم القومية، وعدم التخلي عنها مهما تبدّلت الأحوال والأزمان[1]، ولهذا عدّ محمد بن شنب -في نظره - من رواد نهضة الجزائر يقول: "وإنّ بوادر النّهضة قد ظهرت من عهد غير بعيد، وإنّ فقيدنا اليوم من الطلائع المبكرة لهذه النّهضة بهذا الوطن"[2].

يضاف إلى محافظته إخلاصُه في عمله الذي هو سرّ نجاحه في حياته العلمية، يقول الشيخ **البشير الإبراهيمي**: "الرجل مخلص في أعماله، وما نجاحه في حياته

[1] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص46.

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص46.

العلمية إلاّ نتيجة إخلاصه، والإخلاص أحوج ماتحتاج إليه ناشئتنا"[1]، ومن ثمّ فإنّ الإخلاص هو العامل الرئيس في تفوق محمد بن شنب العلمي والعملي، وقد استدل الشيخ **البشير الإبراهيمي** على ذلك بالقياس الآتي:

المقدمة الكبرى: الرجل مخلص في أعماله

المقدمة الصغرى: نجاحه في الحياة العلمية نتيجة إخلاصه

النتيجة (الضمنية): إذا الرجل ناجح في أعماله

يتضح من هذا القياس أنّ الشيخ **البشير الإبراهيمي** ينتقل من المقدمتين الكبرى والصغرى (وهي إخلاص الرجل في أعماله، ونجاحه في حياته العلمية نتيجة إخلاصه) إلى نتيجة ضمنية هي: أنّ الرجل ناجح في أعماله لأنّ الإخلاص -حسب رأيه- هو الأساس الذي يضمن بقاء الأعمال والنجاح، يقول: "والإخلاص أحوج ما تحتاج إليه ناشئتنا، في وقت ذهب فيه الإخلاص ضحيّة المداجاة والنفاق والغش والمؤاربة، ومجموعها هو الرياء الخادع"[2].

إلى جانب الإخلاص امتاز محمد بن شنب أيضا بالصبر الذي عرف عنه، ممّا جعله متميزا ناجحا في حياته، يقول الشيخ **البشير الإبراهيمي**: "الرجل صبور،

[1] - المرجع نفسه، ج1، ص46.

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص46.

والصبر مطيّة النجاح وقوام الحياة كلّها"[1]؛ وهنا يؤكد على أنّ الصبر هو عنوان الفلاح والنجاح في الحياة بشكل عام،وقد عبر عن ذلك بالقياس الآتي:

المقدمة الكبرى: الصبر مطية النجاح وقوام الحياة كلها

المقدمة الصغرى: الرجل صبور

النتيجة (الضمنية): إذا الرجل ناجح في حياته

إنّ المتأمل في تركيب القياس يجد أنّ الشيخ **البشير الإبراهيمي** قد استلهم مضمونه من الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[2] فالصبر أساس النجاح في الدنيا والآخرة، ولهذا ركز الشيخ **البشير** على هذه الناحية التي جعلت محمد بن شنب محافظا ومخلصا .

إجمالا نقول؛ إنّ وصف الشيخ البشير الإبراهيمي لأخلاق العالم محمد بن شنب يهدف إلى جعله قدوة لأبناء وطنه،ومثالا يحتذى في أخلاقه وعلمه وعمله.

1_1_ حجّة القدوة:

نلمح هذه الحجّة في حديثه عن خصال الفقيد، يقول: "وإنّما وقفت لأبيّن لكم ناحية من نواحي الفقيد وهي ناحية عرفها القليلون منا وجهلها الكثيرون، وهذه الناحية هي الغرّة اللائحة في حياة الراحل الكريم، وهذه الناحية هي –في نظري –سرّ

[1] – المرجع نفسه، ج1، ص46.

[2] – العصر، الآية، من 1 إلى 3.

نبوغه، أو سرّ تفوقه، أو سرّ غربته في هذا الوطن"[1]، ثم يختم قوله قائلا: "هذه الناحية هي العظة البالغـة، والعبرة النافعة للناشئين منّا في العلم، وهي المثال الذي يجب أن يحتذوه، وما حياة العلماء الذين وقفوا حياتهم لنفع البشر إلاّ أمثلة تحتذى، ولها بعد ذلك أثرها في النّفوس إن خيرا وإن شرا"[2]؛ أي أنّ الشيخ **البشير الإبراهيمي** أراد من خلال سرده لصفات محمد بن شنب أن يدفع المخاطب إلى الاقتداء بحجّة القدوة ليكون ناجحا في حياته وأعماله، وفي دينه ودنياه، ولذلك جسدت تلك القياسات التي وظفها الشيخ صورة حيّة لهذه القدوة.

وهكذا، تكون الأخلاق مع العلم سلاحا لبناء نهضة الأمة وتحريرها من قيود الاستدمار، وفي هذا السياق يذكر تركي رابح أنّ الشيخ **البشير الإبراهيمي** إذا تحدث عن الأخلاق والعلم "تكون لغته حارة نابعة من أعماق وجدانه... ممّا يدل على إيمانه العميق بدور الأخلاق والعلم في نهضة الشعب الجزائري وتحريره، وبنائه على أسس سليمة"[3]، ولهذا كان (**الشيخ البشير**)يرى أنّ تحرير الوطني كون بامتلاك سلاحين هـما: الأخلاق القويمة، والعلم المتين؛إذ يروي تلميذه تركي رابح بأنّه كان يقول لهم: "إنّكم لن تستطيعوا أن تنفـعوا وطنكم وأمتكم إلاّ إذا امتلكتم سلاحين هامين بدونهما لن تفلحوا في الحياة، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئا هاما:1-الأخلاق القويمة المتينة، 2- العلم القوي المتين أيضا"[4].

---

[1] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1، ص48.

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص48.

[3] - تركي رابح، البشير الإبراهيمي في المشرق العربي (مقال)، ص262.

[4] - المرجع نفسه، ص261.

يتضح مما تقدم ذكره، أنّ البعد الحجاجي لخطبة التأبين يتمثل في: إعادة الاعـتبار لقدوات ورموز هذا الوطن الجريح من خلال حديثه (الشيخ البشير) عن شخصية محمد بن شنب التي ترمز إلى المحافظة على الهوية الجزائرية، في وقت سعى فيه المستدمر جاهدا إلى طمس معالم تلك الهوية، وترسيخ كيانه الغاصب[1].

أمّا الهدف الحجاجي الثاني المقترن بخطبه فهو:

2- إصلاح الدين ونشر مبادئه الصّحيحة:

يهدف الإصلاح الديني إلى وصل الجزائر بماضيها الإسلامي ذلك الماضي المشرق؛ لأنّ كثيرا من المدن الجزائرية كانت تمثل مركز إشعاع علمي معروف؛ فمن قرأ مثلا "تاريخ المدن الجزائرية العلمية التي كانت لها في الحضارة أوفر نصيب: تلمسان، وبجاية، وتيهرت، وقلعة بني حماد، والمسيلة، وطبنة، وبسكرة، ومن قرأ هذه التواريخ علم أيّة سمات خالدة وسم بها الإسلام هذا القطر"[2].

عمل المستدمر منذ احتلاله للجزائر على القضاء على الإسلام عن طريق مصادرة الأوقاف الإسلامية بالعاصمة بكلّ أنواعها وإلحاقها بأملاكه؛ أي الدولة المحتلة[3]، كما حوّل المساجد إلى كنائس، ثمّ أرسل البعثات التبشيرية التي سعت بكل وسيلة لمحو الإسلام من قلوب الجزائريين وعقولهم.

---

[1]-ينظر: محمد زرمان، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ص85-86.

[2] - رابح تركي عمامره، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931-1956) ورؤساؤها الثلاثة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر، ط1 2004، ص227.

[3] - محمد زرمان، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ص85-86.

وقد نتج عن ذلك ظهور الأمية بشكل واسع في الجزائر، وهذا الوضع عززته سطوة شيوخ الطرقية التي تحالف بعضها مع المستدمر؛ حتى غدت سيفه المسلول المسلط على رقاب الجزائريين؛ فانتشرت الخرافات والانحرافات.

إزاء هذا الواقع القاتم سطع نور جمعية العلماء المسلمين الإصلاحية التي رفعت لواء إحياء مجد الإسلام وقد كان من أهم أولوياتها، ومبادئها، وأهدافها الدفاع عن الدين وربط الجزائر بماضيها، يقول الشيخ **البشير الإبراهيمي**: "إنّ جمعيتكم هذه أسّست لغايتين شريفتين لهما في قلب كلّ عربي مسلم بهذا الوطـن مكانة لا تساويها مكانة، وهما: إحياء مجد الدين الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية"[1]، ثمّ يضيف قائلا: "فأمّا إحياء مجد الدين الإسلامي فبإقامته كما أمر الله أن يقام بتصحيح أركانه الأربعة: العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والخلق فكلّكم يعلم أنّ هذه الأركان قد أصبحت مختلة، وأنّ اختلالها أوقعنا فيما ترون من مصائب وبلايا وآفات"[2].

لقد اختلت الديانة وضعف الوازع الديني،وهو ما أدّى إلى انتشار الخرافات التي صيّرت العبادات جسدا بلا روح[3]،ومن هنا جاءت دعوة الشيخ الإصلاحية التي ترمي إلى إحياء هذا الدين الذي يقوم على الإصلاح[4]، ولهذا نجده في خطبته الاحتفالية بمناسبة تكريم الشيخ ابن باديس يقول: "إنّ دينكم دين إصلاح وسبب

---

(1) – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج1، ص133.

(2) – المرجع نفسه، ج1، ص133.

(3) – المرجع نفسه، ج1، ص 91.

(4) – انطلق البشير في فكرة الإصلاح من القرآن الكريم ، قال تعالى :﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد/ 11) ينظر: المرجع نفسه،ج1،ص161.

إصلاح، ومظهر إصلاح"[1]، يؤكّد الشيخ – في هذا القول– على أنّ دين الإسلام دين إصلاح سببا ومظهرا، وذلك من خلال القياس التالي:

المقدمة الكبرى: إنّ دينكم دين إصلاح

المقدمة الصغرى: سبب إصلاح ومظهر إصلاح

النتيجة الضمنية:إنّ دينكم دين إصلاح سببا ومظهرا فاسعوا إلى الإصلاح.

نلحظ من هذا القياس أنّ فكرة الإصلاح تمثل –عند الشيخ – غاية حجاجية أساسية في خطبه[2]؛ حيث سعى إلى دفع المخاطب إلى إصلاح حاله بتقوية شعوره الديني، وهو الهدف الذي يصبو إليه المصلح، يقول الشيخ **البشير الإبراهيمي** مخاطبا جمعا من الحاضرين بمناسبة افتتاح مسجد سطيف سنة 1931: "أنّ أوكد الواجبات على كلّ من يريد الإصلاح لهذه الأمّة، هو تقوية الشعور الديني في نفوس الأفراد؛ لأنّ الناحية الدينية هي النّاحية التي يسهل على المصلح استمالة الجمهور إليها، فإذا مال الجمهور إليها سهل جذبه بها إلى ما يراد به من خير وإصلاح"[3]، وبذلك يكون الإصلاح بتقوية الشعور الديني طريقا لرد الأمة إلى ما كانت عليه من صلاح في دينها، وهذا لا يتحقق – حسب رأيه– إلاّ بشيئين هما: 1–بناء المساجد التي تعدّ منابر

(1) – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1،ص365.

(2) – المرجع نفسه، ج1، ص284–285.

(3) – المرجع نفسه، ج1، ص 91.

للدعوة والإصلاح 2-الدروس والمحاضرات التي تنشر الوعي الديني بين أبناء وطنه[1].

ولعلّ تركيز الشيخ **البشير الإبراهيمي** على الإصلاح الديني في خطبه مردّه- كما ذكرنا سابقا - إلى اختلال العقيدة والعبادات، إذ نجده ضمن خطبته "جمعية العلماء دعوتها وغايتها"- سنة 1933- يصوّر الحالة المتردية التي آلت إليها حالة الدين الإسلامي في الجزائر بسبب تأثير المبشرين وبعض شيوخ الطرقية، ومانتج عنه من اختلال العقائد والعبادات، يقول:"اختلت العقائد ولابسها هذا الشوب من الخرافات والمعتقدات الباطلة؛ فضعفت ثقتنا بالله ووثقنا بما لايوثق به"[2]، عبر الشيخ عن ذلك الاختلال بالقياس الآتي:

المقدمة الكبرى :ضعفت ثقتنا بالله

المقدمةالصغرى: ووثقنا بما لا يوثق به

النتيجة (الضمنية): وثقنا بغير الله فضعفت ثقتنا واختلت عقائدنا ولابسها الشوب من الخرافات

من خلال هذا القياس يبيّن الشيخ أنّ اختلال العقيدة مرتبط بضعف الثقة بالله؛ لأنّ العقيدة هي أساس الدين ولذلك فأوّل ما يجب إصلاحه هو تلك العقيدة عن طريق تنقيتها من شوب الانحرافات، وهو ما سعى إلى تحقيقه ولا يقتصر

[1] - يقول البشير: "وأما المحاضرات التهذيبية فأسلوب الخطابيات المؤثرة في العقول، الحافزة للنفوس، المنبهة للمشاعر على طريقة الترغيب والترهيب" المرجع نفسه، ج1، ص193. ينظر كذلك إلى : المرجع نفسه، ج1، من ص91 إلى ص95.

[2] - المرجع نفسه،ج1، ص133.

الاختلال على العقيدة بل لقد انسحب أيضا على العبادات والأحكام،يقول **الشيخ البشير الإبراهيمي**: "اختلت العبادات فخوت النّفوس من تلك الآثار الجليلة التي هي سرّ العبادة، والتي هي الباعث الأكبر على الكمال الروحي، واختلت الأحكام فانتهكت الحرمات، واستبيحت المحرمـات، وتفكّكت روابط الأسرة الإسلامية"[1]، في هذا القول يقيم الشيخ البشير **حجاجه** على أساس ربط النتائج بالعلل أو الأسباب[2]. فاختلال العبادات مثلا أدى إلى فراغ النفوس من الآثار الجليلة حتى صارت جوفاء؛ أي أنّ فراغ النفوس من الآثار الجليلة نتيجة حتمية لاختلال العبادات، وهذه **حجّة نفعية** قائمة على ربط الأسباب بنتائجها بغية توجيه سلوك المخاطب نحو الاهتمام الحقيقي بمضمون العبادات.

والأمر نفسه نلحظه في اختلال الأحكام الذي نتج عنه انتهاك الحرمات، واستباحة المحرمات، وكذا تفكك الروابط الأسرية، ويمكن التمثيل لهذه الحجة النفعية بالآتي:

اختلال الأحكام ⟵ انتهاك الحرمات واستباحة المحرمات وتفكك الروابط الأسرية...

خلاصة القول: يعدّ الاختلال السبب الرئيس في تلك النتائج؛ سواء أكان في العقائد، أم العبادات، أم الأحكام.

---

(1) – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1،ص133.

(2) – يعدّ هذا النوع حجّة مبنية على وجود رابط سببي يسمح بالانتقال من السبب إلى النتيجة أو العكس، وهي تدرج ضمن الحجج النفعية، ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2001، ص 50.

ومن هنا كان هدف الشيخ **البشير الإبراهيمي** بعرضه لهذه الحجج النفعية هو إبراز دور جمعية العلماء في إصلاح واقع الفساد الديني الذي تفشى في تلك الفترة، وما صاحبه من اختلالات على صعيد العقيدة والعبادة[1].

هذا الدور بدأ يبرز مع فكرة الإصلاح التي تبنتها الجمعية من خلال إحياء مجد الدين الإسلامي، وقد جرّ عليها ذلك نقمة المبشرين؛ لأنّ "هذا التبشير المسيحي (الإنساني) يرى أنّ أعدى عدوّ له المصلحون المسلمون لأنّهم يدعون إلى الإسلام النّقي"[2]، ولذلك اتخذ الشيخ **البشير الإبراهيمي** الإصلاح الديني منهجا لتقويم عبادة الأمة وعقيدتها وفق المنهج الصحيح، منطلقا من أنّ"مبدأ جمعية العلماء المسلمين هو الإصلاح الديني بأوسع معانيه"[3]والذي يشمل جوانب كثيرة: كالجانب العقدي والاجتماعي والعلمي...

وبذلك استطاعت الجمعية بقيادة الشيخ **البشير الإبراهيمي** أن تبطل مشاريع الاستدمار التنصيرية التي سعت للقضاء على هذا الدين، يقول أحد حكام فرنسا إبّان احتلال الجزائر: "إنّ أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله آخر غير المسيح"[4].

إجمالا نقول: إنّ مبدأ الإصلاح الديني كان يعدّ هدفا حجاجيا بارزا في خطب الشيخ **البشير الإبراهيمي**.

---

(1) – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1،ص133.

(2) – المرجع نفسه، ج1، ص196.

(3) – المرجع نفسه، ج1، ص189.

(4) – كوليت وفرانسيس، الجزائر الخارجة عن القانون، ص41، نقلا عن رابح تركي عمامره، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931-1956) ورؤساؤها الثلاثة، ص62

يضاف إلى هذه الغاية غاية أخرى مرتبطة بها ألا وهي:

3-الحفاظ على اللغة العربية:

عكف المستدمر منذ بداية احتلاله للجزائر على محاربة الدين الإسلامي،وذلك من خلال محاولته القضاء على

لسان هذا الدين، والمتمثل في اللغة العربية التي هي لسان القرآن، والجامعة لهذه الأمّة الجزائرية[1]؛إذ عمد(المستدمر) إلى تجهيل الشعب الجزائري، وتغيير هويته العربية بحرمانه من حقّه في التعليم الأصلي، واستبدال المدارس العربية بمدارس فرنسية، وذلك بغرض تغيير انتمائه العربي، وقد نتج عن هذا ضياع اللغة الناقلة والحاملة للدين والتراث والتاريخ، وهو ما عبر عنه الشيخ **البشير الإبراهيمي** بقوله: "كلّكم يعلم أنّ هذا اللسان ضاع من بيننا، فأضعنا بضياعه كلّ ذلك التراث الغالي والنفيس من دين وتاريخ"[2].

ومن هذا المنطلق، دعا في خطبته"جمعية العلماء دعوتها وغايتها" إلى إعادة بعث اللغة العربية وإحيائها قائلا: "أمّا إحياء مجد اللسان العربي؛ فلأنّه لسان هذا الدين والمترجم عن أسراره ومكنوناته؛ لأنّه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلّهم؛ لأنّه لسان محمد بن عبد الله...لأنّه لسان تاريخ هذا الدين ومجلي مواقع العبر منه"[3]، يؤكد الشيخ في هذا القول على أهمية اللغة العربية ومكانتها

---

[1] - يقول الشيخ البشير: "أما في الجزائر فإنّ مشكلة العروبة أساسها وسببها الاستعمار الفرنسي"، محمد البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة في الجزائر، ضمن كتاب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص419.

[2] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص134.

[3] - المرجع نفسه، ج1، ص134.

العظيمة في الدين من خلال **حجّة التقسيم** التي تقوم على تعداد الأجزاء وتقوية حضورها حتىّ تكون الحجّة مقنعة، وهو ما نلمحه في قوله هذا[1].

إحياء مجد اللسان العربي بعدّه أولا : لسان هذا الدين، وثانيا: لسان القرآن، وثالثا: لسان محمد بن عبد الله، ورابعا:لسان تاريخ الدين، فإذا نظرنا إلى أجزاء هذه الحجّة فإنّنا نجد أنّ إحياء مجد اللسان العربي يكون فيه إحياء للدين، وللقرآن، ولمحمد بن عبد الله، وكذا تاريخ الدين.

ومن هنا عدت اللغة العربية - في نظر **الشيخ**- أساس الوجود والجامع الرئيس لهذه الأمة، يقول: "إنّ اللغة هي المقوّم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري، وما من أمّة أضاعت لغتها إلاّ وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى"[2]، مما يقتضي ضرورة المحافظة عليها، ولهذا حثّ الشيخ على العناية بها قائلا: "يأبى لكم الله والإسلام أن تضيعوا لغة كتاب الله ولغة الإسلام"[3]، وهنا نلحظ حجّة قياسية تفصيلها على النحو الآتي:

المقدمة الكبرى: يأبى لكم الله والإسلام أن تضيعوا لغة كتاب الله
المقدمة الصغرى: ولغـة الإســلام
النتيجة (الضمنية): إذا يأبى الله والإسلام أن تضيعوا اللغة فحافظوا عليها

من خلال هذه الحجّة أراد الشيخ دفع المخاطب إلى المحافظة على اللغة العربية التي تمثل لسان القرآن والدين، ولذلك كان يحرص على إلقاء خطبه ودروسه باللغة

(1) - ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص 48.

(2) - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1،ص134.

(3) - المرجع نفسه، ج1، ص135.

العربية الفصيحة، وكانت غايته تحقيق غرضين حجاجين هما : أ- بيان فضل اللغة العربية ودورها الهام في التوصيل، والرد على الطاعنين فيها بخاصة ممن تعلموا باللغات الأجنبية ب- التأثير في المخاطبين[1]، وهو ما يؤكده بقوله: "ولقد بدأت دروسي ومحاضراتي في تلمسان بالعربية الفصحى، وأخذت على نفسي بذلك أخذا أصل فيه درجة الإغراب أحيانا، وكان لي من وراء ذلك الالتزام غرضان"[2].

أ- الغرض الحجاجي الأول: **بيان فضل اللغة العربية ودورها الهام في التوصيل، والرد على الطاعنين فيها:**

تعدّ اللغة العربية عند الشيخ البشير لغة علم وحضارة[3]، ولهذا سعى إلى "إقامة الدليل للمتعلمين باللغات الأجنبية على أنّ الفصحى لا تعيا بحمل المعاني مهما تنوعت وعلت، وأنّها تَبُذُّ اللغات في ميدان التعبير عن الحقائق والخيالات والخواطر والتصورات، وقد بلغت من هذا الغرض ما أريد"[4]،وكانت غايته (الشيخ) في ذلك إبراز مكانة للغة العربية في المجال العلمي والحضاري، والدفاع عنها والدعوة إلى المحافظة عليها، وهذا ما نجده ضمن خطبته "العربية فضلها على العلم والمَدَنِية وأثرها في الأمم غير العربية"[5]؛حيث يورد جملة من الأدلة المبينة لفضلها منها قوله: "قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب،

---

(1) - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص149.

(2) - المرجع نفسه، ج1، ص149.

(3) - ينظر: المرجع نفسه ، ج1، من ص373إلى ص 377.

(4) - المرجع نفسه،ج1، ص149.

(5) - المرجع نفسه، ج1، ص373-374.

والهندسة، والآداب، والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة"[1]، ويشير هذا الكلام إلى ما تحمله اللغة العربية من إمكانات بيانية وعلمية تؤهلها لأن تكون لغة علم وحضارة، وفي ذلك رد على الحاقدين والطاعنين فيها.

وبناء عليه، فإنّ تأكيد الشيخ على منزلة اللغة العربية في ميدان العلم والحضارة يدّل على قيمتها العلمية والحضارية، فهي بمثابة الكنز الذي يجب المحافظة عليه.

ب-الغرض الثاني: **التأثير في المخاطبين** :

عرف الشيخ البشير **الإبراهيمي** بلغته الفصيحة التي كانت تشدّ السامعين وتأسرهم، وقد وصفه محمد العيد أبلغ وصف قائلا[2]:

أخجلت أقطاب البيان فمن يكن *** سحبان أوقُسًّا يلاقك باقـــلا

أدركت في الفصحى مدارك لم يكن*** في العصر ذو أدب إليها واصلا

اتّخذ الشيخ البشير اللغة وسيلة للتأثير في السامعين بدفعهم نحو استنهاض الهمم للاهتمام بها (اللغة)، يقول: "والغرض الثاني أن أحدث في نفوس العامة المحبّين للعلم والدين أسفا يقض مضاجعهم فيدعهم إلى تدارك ما فاتهم منها في أبنائهم"[3]، وقد استطاع بلغته أن يسحر مستمعيه؛إذ كان يتلمس "من عامة السامعين حسن إصغاء ينبئ باهتمام عميق"[4] إلى درجة أنّه حينما يتكلم بالعامية في بعض الدروس يجد السامعين قد استهجنوها ونبت عنها أذواقهم.

---

(1) - المرجع نفسه،ج1،ص376.

(2) - محمد العيد محمد علي خليفة، شعراء الجزائر، ديوان محمد العيد، ص410.

(3) - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص149.

(4) - المرجع نفسه،ج1، ص149.

خلاصة القول: إنّ امتلاك الشيخ **البشير الإبراهيمي** لناصية اللغة مكنه من كسب استمالة المخاطب وإقناعه بالقضايا التي يطرحها، ومن أهمها ترسيخ فكرة الانتماء إلى الأمّة الإسلامية العربية، وذلك بفضل حسن بيانه وقوّة حجّته.

يتضح ممّا تقدم ذكره،أنّ توظيف الشيخ البشير لحجّة القياس في خطبه مرتبط بتحقيق ثلاثة أهداف حجاجية متداخلة هي:التمسك بالهوية الجزائرية، ومحاربة الاستدمار، وإصلاح الدين، وكذا المحافظة على اللغة العربية، وهذا ما نلمحه في شعار جمعية العلماء: الجزائر وطنا، والإسلام دينا، والعربية لغة.

ومن الحديث عن القياس ننتقل إلى حجة نصية أخرى هي:

2_ المثل:

يعدّ المثل نوعا من القياس، وهو حجّة تستمد قوّتها من المشابهة التي تؤدّي إلى نتيجة مقنعة، يقول محمد العمري: "المثل حجّة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدّمتها، ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها"[1]، ومن ثمّ يصبح المثل كالدليل الذي يكون ماثلا وشاخصا في ذهن المخاطب على القضية التي يطرحها المتكلم، ولذلك يؤدّي وظيفة بيانية وحجاجية، وهو ما يشير إليه الجرجاني بقوله: "إن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه وبيانه أبهر"[2]، ولهذا يوظف المثل، إمّا لأجل تأييد قضية أو نفيها، وذلك عن طريق المشابهة التي تحقق تلك الغاية.

---

[1]–محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، أفريقيا الشرق المغرب، ط2، 2002، ص 82.

[2] – عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، صححه رشيد رضا، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، دط، دت، ص78.

نجد في خطب الشيخ **البشير الإبراهيمي** جملة من الأمثلة، نذكر منها: ما ورد في خطبته الافتتاحية لمسجد سطيف، يقول: "أيها السادة: إنّ لله في هذا الجامع حكمة، فقد كان مصداقا للمثل الذي ضربه نبينا صلى الله عليه وسلم بحال الثلاثة الذين دخلوا عليه وهو جالس مع أصحابه"[1]، ثم يضيف قائلا: "فيما روينا في صحيح البخاري: فأقبل عليه اثنان منهم وأعرض الثالث، ووجد أحد الرجلين فرجة فجلس فيها،وجلس الآخر خلف الصف استحياء، فلّما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديثه، قال:ألا أخبركم عن الثـلاثة؛أمّا أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله،وأمّا الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه،وأمّا الثالث فأعرض فأعرض الله عنه"[2]، يستشهد الشيخ البشير ضمن هذا القول بشاهد تاريخي وقع في زمن النبي(صلى الله علية وسلم)،وقد استطاع أن يصوّر بواسطته حال النّاس في تشييد مسجد سطيف، فهناك طائفة أسهمت في بناء المسجد وأخرى أعرضت، فكان ذلك شبيه بحال الثلاثة الذين قدموا إلى مجلس النبي الكريم،أين اقترب الأول والثاني، وأعرض الثالث،وهذا هو الجامع بينهما، وقد أضاف هذا المثل قوة إقناعية مكنت الشيخ من تجسيد صورة الناس في الإقبال على الخير، والإعراض عنه بصورة ماثلة في ذهن السامع هي صورة الثلاثة الذين دخلوا مجلس رسول الله، وهو ما زاد في درجة إقناع السامع، ويمكن توضيح ذلك من خلال المبيان الآتي:

---

[1] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1، ص92-93.

[2] – البخاري، صحيح البخاري ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، اعتنى به محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ج1، ص28 .

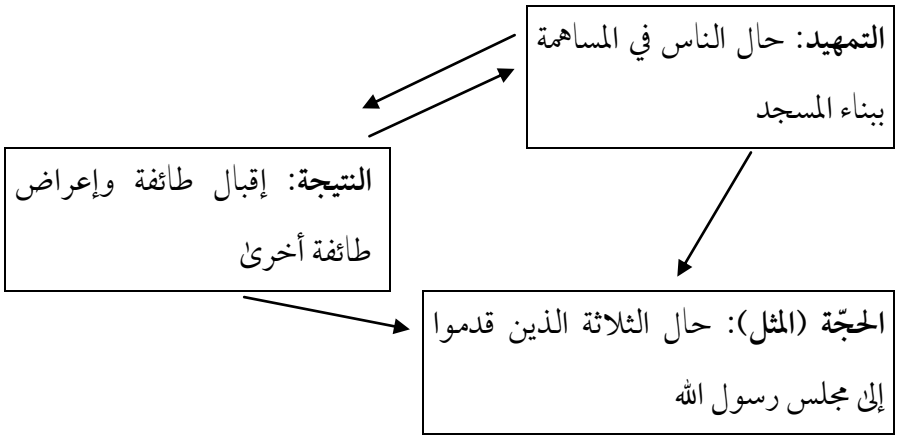

ومن هنا نلحظ قوّة حجاجية التمثيل ودوره في إحداث الإقناع والتأثير، ولذلك احتج به (المثل) **الشيخ البشير** في بعض المواضع من خطبه؛ إذ نجده ضمن سياق خطابي آخر يحاجج عن نجاح الجمعية في تجاوز العقبات والعوائق، بقوله:"أيها الإخوان: أما وقد جاوزت جمعيتكم خمس مراحل من وجهتها الموفقة ... ولقيت من العوارض والعوائق ما ذللته العزائم ومهدته الهمم ... فكانت عليها كنار الخليل بردا وسلاما"[1].

يبرز **الشيخ البشير**-في هذا النص- نجاح الجمعية بتجاوزها للعوائق والعقبات من خلال استدلاله بمثل تاريخي يتمثل في"نار الخليل بردا وسلاما"، فكان ذلك خير دليل على نجاحها، ويمكن توضيح هذا الاستدلال عن طريق المبيان الآتي:

[1] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص281.

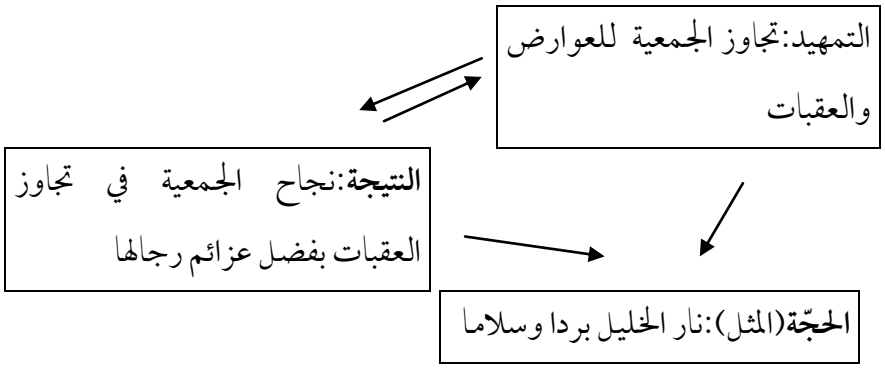

سعى **الشيخ البشير** من خلال توظيفه لهذا المثل إلى تبرير نجاح الجمعية في تجاوزها للمصاعب والعقبات ولذلك كانت للجمعية مكانة كبيرة في قلوب الجزائريين؛ لأنّها نشأت في ظروف عصيبة مرّ بها هذا الوطن العزيز وهو ما يؤكده (الشيخ) بقوله: "إنّ هذه الجمعية كالسحاب ساقه الله إلى بلد ميت، فلا يقلع حتّى يحييه، وإذا كان إحياء المطر للأرض معنى فوق التحديد، فكذلك معنى هذه الجمعية،وإنّ سائق المطر للبلد الميت هو سائق هذه الجمعية لهذا الوطن المشرف على الموت"[1]، ثم يضيف قائلا: "وإنّ جاعل المطر سببا في إحياء الأرض هو جاعل هذه الجمعية سببا في إحياء هذا الوطن، فليكفكف المبطلون من غلوائهم، وليقصر المرجفون عن إفكهم، وليعلموا أنّه لا راد لما سائقه الله، وأنّهم ليسوا وإن اجتمعوا بمعجزي الله"[2].

يؤكّد **الشيخ البشير** ضمن قوله على مكانة الجمعية ودورها الفاعل في إحياء هذا الوطن،وفي ذلك ردّ على الطاعنين في دورها(الجمعية) الرّيادي،وقد استدل على

[1] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1، ص138.

[2] – المرجع نفسه،ج1، ص138.

ذلك بالمثل التشبيهي؛ إذ شبهها بالسحاب الذي يسوقه الله سبحانه وتعالى؛ فيحمل المطر إلى الأرض البور، أو الميتة ليحييها، وهو ما ينطبق على حال الجمعية التي ساقها الله لتحيي أمجاد هذا الوطن الميت، فالجامع بينهما (الجمعية والسحاب) النفع، وفي ذلك حجّة ساطعة ودليل واضح على منزلة الجمعية ودورها الريادي في بنائها لصرح الوطن، وفيها رد صريح على الطاعنين أو المتربصين بالجمعية الذين لا يستطيعون رد قضاء كتبه الله، فهم عاجزون عن ذلك، ويمكن بيان هذا الأمر عن طريق المبيان الآتي:

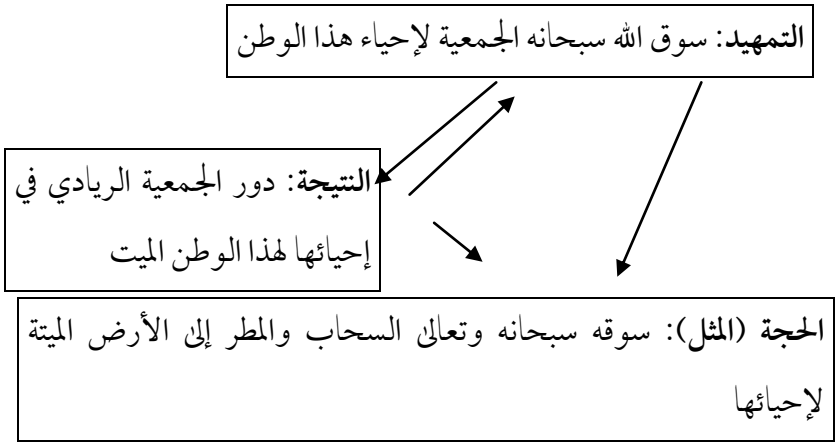

قد يوظف **الشيخ البشير** المثل التشبيهي في بعض المواضع من خطبه لمحاججة الخصوم، وخاصة الطرقية التي عاث بعض شيوخها فسادا بالجزائر، يقول: "كيف تجتمع وللشيوخ فيها ما للذئاب الضارية في قطيع الغنم؟ أم كيف تجتمع والشيوخ قد قسموها إلى مناطق نفوذ؟وأحاط كلّ شيخ رعيته بأسوار منيعة من الترغيب والترهيب؟"[1]؛ يصوّر (الشيخ)في هذا القول مكر شيوخ الطرقية الذين ادّعوا أنّهم دعاة وحدة عن طريق تشبيههم بـ"الذئاب الضارية في قطيع الغنم"؛ إذ قسموا الجزائر إلى مناطق نفوذ أو إقطاع، هدفها السيطرة وتحقيق المصالح الشخصية. وهذه الصورة

[1] - المرجع نفسه،ج1،ص139.

جسدت بشكل جلي حقيقة بعض شيوخ الطرقية الذين صاروا ذئابا تنهش من لحم هذا الوطن الجريح، وفي ذلك حجّة قاطعة على مكرهم وخداعهم، وهو ما نبيّنه من خلال المبيان الآتي:

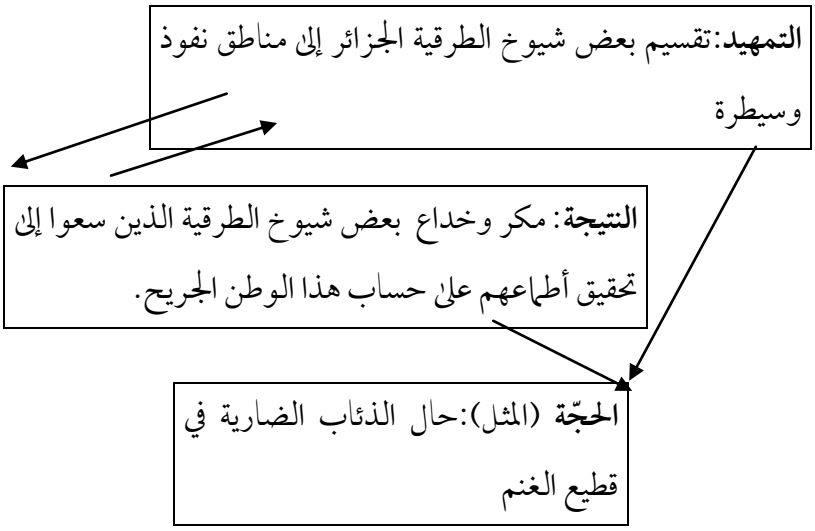

عن طريق هذا المثل التشبيهي الذي صاغه **الشيخ البشير** ارتسمت في ذهن السامع حقيقة بعض شيوخ الطرقية باستحضاره لصورة الذئاب التي ترمز إلى بعض شيوخ الطرقية، وما تحمله من مكر وخداع، وصورة الغنم التي ترمز إلى الوطن الجريح، وفي هذا التمثيل التناسبي حجّة ودليل للسامع على مكر أولئك الطرقيين.

خلاصة القول: يعدّ المثل دعامة حجّية تبريرية استند إليه **الشيخ البشير** ضمن خطبه؛ لكي يقنع السامع بجملة من القضايا منها: المساهمة في بناء المساجد، والتأكيد على دور الجمعية الريادي في هذا الوطن، وكذا نجاح الجمعية بتجاوزها العقبات، فضلا عن الرد على الخصوم مثل: بعض شيوخ الطرقية وغيرهم .

يضاف إلى القياس الخطابي والمثل حجج نصية أخرى وظفها **الشيخ البشير** في خطبه، من ذلك الشواهد القرآنية، والحديث، والشعر، والحكم ...

ب- **الحجج النصية الجاهزة:**

تسمى هذه الحجج النصية حججا جاهزة؛لأنّها موجودة وحاضرة في السياق الثقافي للخطيب، ومن ثمّ يقوم باختيارها وتوجيهها لتخدم استدلاله وغرضه، فهي تكتسب مصداقيتها (الحجج) من مصادرها ومصادقة النّاس عليها، ويدخل فيها تضمين الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية،وأبيات الشعر، والأمثال، والحكم، ولهذا فـ"هي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه"[1].

والمتأمل في خطب الشيخ **البشير الإبراهيمي** يجد توظيفا كثيفا لهذه الحجج النصية الجاهزة، وهو ما يؤكّده أبو القاسم سعد الله بقوله: "أمّا خطابة الإبراهيمي فتميزت بالطابع الأدبي والبلاغي، واستحضار المحفوظات والشواهد، وكان مؤثرا في الخاصة أكثر من العامة، وهو يجيد النكتة السريعة واللمحة الدالة"[2]، لذلك فإنّ استحضار الشيخ **البشير** لتلك الشواهد في خطبه مرده إلى سعة ثقافته الإسلامية واطّلاعه على التراث العربي[3].

وفيما يلي عرض لهذه الحجج النصية الجاهزة بحسب قوة درجة حجيتها:

---

[1] - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص90.

[2] - أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج8، ص109.

[3] - يوسف القرضاوي، مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص7.

1-**الشّاهد القرآني**:

يعدّ القرآن منبعا للاستشهاد والاحتجاج، يقول الزركشي:"اعلم أنّ القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة"[1]؛ولهذا عدّ الشاهد القرآني في مقدمة الحجج الإقناعية نظرا لما يكتسبه من خصوصية ومصداقية لدى السامع العربي الذي يستحسن: "أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن؛ فإنّ ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع"[2]،وبهذا أصبح الشاهد القرآني عنصرا أساسيا ضمن الخطبة؛لأنه يؤثر على المخاطب فيجعله أسير تلك الخطبة؛ يقول **الشيخ البشير**: "وكنت أرى من عامة السامعين حسن إصغاء ينبئ باهتمام عميق،فأتأوّله على أنّه تأثر بالآيات والأحاديث التي يكثر ترددها في الدرس منزلة على ما سيقتله، والتأثر بكلام الله وكلام رسوله طبيعي في المسلم، وكم كنت أخشى أن ينفضوا من حولي يوما لعدم فهم ما يسمعون، لولا أنّني آو إلى ركن شديد من كلام الله ورسوله"[3].

فالشاهد القرآني يؤدي وظيفتين: الأولى إحالية؛ حيث يشير إلى نص مشترك بين الخطيب والسامع،وهذا ما يسهم في تحقيق الإقناع، والثانية: تأثيرية حجاجية؛ تهدف إلى جذب انتباه السامع من خلال استحضار معاني ودلالات الشاهد القرآني وتوجيهها نحو الغاية التي يؤمّها الخطيب، وهذا ما دفع **الشيخ البشير الإبراهيمي** إلى

---

[1] – الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2006، ص344.

[2] – الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص118.

[3] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص149.

توظيفه (الشاهد) في خطبه، لاسيما الدينية منها، وفيما يلي عرض لجملة من الشواهد القرآنية التي استدل بها.

ففي خطبة جمعية مثلا يستحضر مجموعة من الحجج النصية القرآنية،وذلك في معرض دعوته إلى التقوى واتباع هدي الرسول الأمين والتمسك به، يقول مخاطبا جمعا من المصليين: "أيها النّاس اتقوا الله تعالى حقّ التقوى وحافظوا على حدوده في السرّ والنّجوى، وامتثلوا أمر ربكم الـذي أكسبكم فخرا وتعظيما"[1]، مستدلا بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَّ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2]، وفي هذا بيان وتأكيد على أهمية التقوى والتأسي بالرسول الكريم عليه السلام، الذي كان متبعا لأمر ربه؛ فاستحق بذلك الثناء والتعظيم منه سبحانه تعالى؛ لأنّ التقوى هي أساس العبادة والنجاة من النار .

ثمّ انتقل **الشيخ البشير** بعد ذلك إلى الدعوة إلى الاتحاد والتآلف، وترك الضغائن والأحقاد،ونشر روح التسامح والتراحم،يقول:"فأقيموا القصد في التقرب من بعضكم، ودعوا الأحقاد والتباغض،وأسبلوا على ما فرط من بعضكم للبعض أذيال الستر والعفو، والزموا خلق الرضا والصفح، فكونوا عباد الله رحماء بينكم"[3]، ثم ساق قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهّ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[4]، وتتضمن هذه الآية الكريمة ذكرى وعظة للمؤمنين

---

(1) – المرجع نفسه، ج1، ص65.

(2) – سورة الأحزاب، الآية، 56.

(3) – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1، ص65-66.

(4) – آل عمران، الآية 103.

تبث فيهم روح الأخوة والتآخي، وتنبذ دعاوى الفرقة والخلاف، وفي ذلك دعوة للوحدة والتآخي، وهذا ما يدعو إليه الشيخ **البشير الإبراهيمي**.

ويختم خطبته الجمعية بدعاء الضراعة إلى الله بالثبات على الدين والبعد عن الزيغ،مستحضرا قوله تعالى﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1]، وهذا هو دعاء المرسلين ورجاء المنيبين ولكن الثبات -في نظره- لا يتحقق إلا بفعل الطاعات واجتناب المعاصي[2]، وهنا نلحظ أنّ إيراد الشيخ لهذه الآية آخر الخطبة يهدف إلى جذب السامع بأحسن الحديث ألا وهو كلام ربّنا سبحانه، متأسيا بديدن الخطباء الأوائل في ترتيب أجزاء الخطبة؛ إذ إنّه (الشيخ البشير)استفتح الخطبة بالحمد والثناء على الله ثمّ ختمها بالدعاء، والغاية من هذا كلّه استمالة السامع.

وبناء عليه، يهدف توظيف الشيخ البشير للحجج النصية القرآنية في خطبته الجمعية إلى تحقيق غرض حجاجي يتمثل في الوعظ والإرشاد من خلال دعوة السّامع إلى اتباع نهج القرآن والتخلق بفضائله وآدابه.

ومن المناسبات التي نلمح فيها استحضار الشاهد القرآني خطبته التي ألقاها في الاجتماع السّنوي للجمعية بعد مرور ثلاث سنوات من تأسيسها؛أين عرض جهود الجمعية وإنجازاتها، ومن أهمها إحياءها لدين الله في هذا الوطن العزيز، ونشرها للعقيدة الصحيحة من خلال تبني نهج الإصلاح، في وقت عاثت فيه بعض شيوخ الطرقية فسادا وإفسادا بالدين عن طريق نشر الخرافات؛ حتى غدوا سيف المستدمر

---

[1] - آل عمران، الآية 8.

[2] - ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1، ص66.

الجاثم على أعناق الجزائريين، ولذلك حينما ظهرت الجمعية التي فضحت زيفهم ونزعت عنهم الحجاب الذي كانوا به يتسترون ناصبوها العداء ورموها بالضلال[1]، وادّعوا أنّها "فرقت كلمة الأمة، وجلبت عليها الاضطراب والفتنة والتشويش"[2]، وقد فند **الشيخ البشير الإبراهيمي** تلك المزاعم من خلال رده على شيوخ الطرقية ومحاججتهم بالحجّة القاطعة والبيان الكاشف قائلا: "لو أنّ هذه الطائفة أوتيت قليلا من الرشد والإنصاف لكانت للجمعية مكان الأخ من أخيه،ولحمدوا لها سعيها في خدمة الأمة، ولعادوا من نحلهم المفرقة إلى دعوتها الجامعة، التي هي دعوة الله لخلقه على لسان أنبيائه ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3]" [4]، وهنا نلحظ دقة استدلاله بهذه الآية في هذه المناسبة؛ إذ إنّ شيوخ الطرقية -كما يرى - يعلمون ضلالهم، ولكنّهم يستمرون في غيهم وضلالهم حفاظا على المصلحة الشخصية دون النظر إلى عواقب ذلك الضلال على الإسلام والمسلمين،وما ينتج عنه من آثار وخيمة، وهذا الحال شبيه بحال أحبار اليهود والنصارى الذين كتموا حقيقة النبي وهو موجود في كتبهم المقدسة.

لقد أضفى استدلال الشيخ **البشير الإبراهيمي** بالآية الكريمة - في هذا الموقف- حجّية على كلامه انطلاقا من هذا الترابط النصي والمقابلة التناسبية التي جمعت بين موقف شيوخ الطرقية من علماء الإصلاح، وبين موقف أحبار اليهود والنصارى تجاه

---

[1] - يقول البشير: "وقد ناصبها هذا الفريق العداوة من يوم تأسيسها"،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص139.

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص139.

[3] - البقرة، الآية، 146.

[4] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج1، ص139.

شأن النبي الكريم، وهذا يعكس – في الحقيقة– سعة ثقافة البشير الدينية وبراعته الحجاجية.

نستنتج مما سبق ذكره أنّ الشيخ **البشير الإبراهيمي** يملك ثقافة دينية واسعة تجلت من خلال محفوظه من الشواهد القرآنية التي استثمرها في بناء حججه؛ لأنّ القرآن–في نظره – يؤثر على العقول والقلوب، ولهذا استمد منه كثيرا من الشواهد والاقتباسات التي خدمت غرضه الحجاجي والمتمثل في الإصلاح، يقول: "القرآن هو الذي أصلح النفوس التي انحرفت عن صراط الفطرة، وحرّر العقول من رقبة التقاليد السخيفة...القرآن إصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها"[1].

ومنه نقول: إنّ الشاهد القرآني يعدّ مرجعا حجاجيا للشيخ البشير نظرا لما يحمله من تأثير وإقناع؛إذ أنّه حافل (القرآن) بالحجج والبراهين المؤثرة، يقول حمد بن إبراهيم العثمان: "قد تنوعت أساليب القرآن، وتعددت في تقرير الحق وإبطال الباطل على وجه معجز لا نظير له، وفيه الدلالة الواضحة البيّنة لقواعد وأصول الجدل والمناظرة؛ ذلك بما جاء فيه من الأدلة العقلية الصريحة ...ومن ضرب الأمثال"[2].

بعد الحديث عن الحجج النصية القرآنية في خطب الشيخ البشير ننتقل إلى الحجج النصية النبوية.

---

[1] – المرجع نفسه، ج4، ص94–95.

[2]– حمد بن إبراهيم العثمان، أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط2، 2004، ص29 .

2- **الشاهد النبوي:**

تعدّ النصوص النبوية حجّة؛ لأنّها صادرة عن وحي ثان؛ حيث تستمد حجيتها من قائلها عليه الصلاة والسلام (الرسول المبلغ عن الله تعالى)، وعلى هذا الأساس سعى الشيخ **البشير الإبراهيمي** إلى استثمار حجية النص النبوي في حجاجه ضمن خطبه.

نلحظ في خطبه استشهادا واقتباسا من النصوص النبوية - وإن كانت قليلة مقارنة بشواهده القرآنية-من ذلك ما نجده في خطبته بمناسبة افتتاح مسجد سطيف؛ إذ يقول:"أيها السادة: إنّ لله في هذا الجامع حكمة فقد كان مصداقا للمثل الذي ضربه نبينا صلى الله عليه وسلم بحال الثلاثة الذين دخلوا عليه وهو جالس مع أصحابه"[1] ثمّ يضيف قائلا: "فيما روينا في صحيح البخاري: فأقبل عليه اثنان منهم وأعرض الثالث، ووجد أحد الرجلين فرجة فجلس فيها،وجلس الآخر خلف الصف استحياءً، فلمّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديثه، قال:ألا أخبركم عن الثلاثة،أمّـا أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله،وأمّا الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأمّا الثالث فأعرض فأعرضه الله عنه"[2].

يصوّر **الشيخ البشير** في هذا القول حال المسهمين في بناء مسجد سطيف الذين بذلوا المال ابتغاء مرضاة الله وصبروا على كيد الكائدين، مستدلا على ذلك بالحديث الشريف الذي يعكس حقيقة حالهم؛ أي حال المسابقين من المحسنين الذين قدموا النفس والنفيس خدمة لهذا الدين، في وقت تقاعس كثيرون عن دعمهم

[1] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص92-93.

[2] - البخاري، صحيح البخاري، ج1،ص28 .

ومساعدتهم[1]. وبناء عليه، فإنّ استحضاره للنص النبوي ضمن هذا السياق مرتبط بغرض حجاجي ألا وهو:

ترغيب النّاس في المساهمة بالبذل والعطاء لبناء بيوت الله، وكذا الصبر والثبات على الحق ابتغاء لوجه الله.

لكن في المقابل إذا كان يستدل بالنص النبوي الصريح في حجاجه، فإنّه قد يلجأ أيضا إلى الاقتباس منه والتمثل بمعانيه وألفاظه في أسلوب كلامه، ومن ذلك اقتباسه ضمن خطبته التأبينية مـن الحديث الشريف، يقول: "يا ساكن الثرى نم هنيئا في جوار ربّك، فهذا آخر العهد بشخصك الكريم، ولكنّه ليس آخر العهد بآثارك الخالدة، وإنّا عليك يا محمد لمحزونون"[2]، وفي هذا القول يبرز حزنه العميق على فراق محمد بن شنب الذي مات وترك آثارا تخلد ذكراه من خلال قوله: "وإنا عليك يا محمد لمحزونون"؛ حيث استلهم ذلك من الحديث النبوي، قال صلى الله عليه وسلم في موت ابنه إبراهيم: "إنَّ العين تدمع، والقلب يحزن ولا نقول إلاّ ما يرضي ربنّا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"[3]، نجد أن هذا الاقتباس قد أضفى قوّة حجاجية تناصيّة على قول الشيخ البشير؛لأنّ الحديث النبوي يحيل على نص مشترك بين المتكلم والسامع، فضلا عن كونه يحظى بالتسليم من قبل عامة الناس به، ولهذا كان لاقتباسه تأثير كبير في مخاطبه، يضاف إلى ذلك نجاحه باستثمار مقام التأبين (بمراعاة حالة الحزن

(1) – يقول الشيخ البشير : "وصدق رسول الله،فقد بذل قوم في هذا الجامع أموالهم لا يرجون إلا الله والدار الآخرة" ، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص93.

(2) – المرجع نفسه،ج1،ص49.

(3) – البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص286.

العامة) في تصوير حزنه الشديد على فقد العالم الجليل محمد بن شنب وهو ما زاد في درجة التأثير على مخاطبه.

وهكذا، فإنّ تضمينه لحجّة النص النبوي في خطبه مرده إلى خصوصية ذلك النص الذي يؤدي وظيفة حجاجية عن طريق مصادقة وتسليم عامة المسلمين به، فضلا عن الدلالات والمعاني حجاجية التي يحملها.

خلاصة القول؛ يهدف توظيف **الشيخ البشير** للنص النبوي ضمن سياقات خطبه احتجاجا استشهادا واقتباسا إلى استغلال إمكاناته(الحديث) البيانية والإيقاعية و الحجاجية للتأثير في مخاطبه؛ بأن يدفعه نحو استنهاض الهمّة لفعل الخيرات، مثل: بناء المساجد والتأسي بأخلاق العلماء الفضلاء الذين خلدوا مآثارهم.

إلى جانب احتجاج الشيخ البشير بالنص القرآني والنبوي ضمن خطبه نجده يستحضر أيضا الشواهد الشعرية والحكمية، والوقائع التاريخية.

3_**الشّاهد الشعري**:للشعر منزلة عظيمة عند العرب؛ فهو يعدّ ديوانهم الحافل بأخبارهم وأيامهم وحكمهم،وعنه قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنَّ من الشعر حكمة"[1]، ففيه تأكيد على مكانة الشعر وقوّة حجيته وإقناعه ضمن البنية الثقافية والحضارية للمجتمع العربي، وهذا ما دفع خطباء العرب منذ القديم إلى التمثّل بالشعر والاستشهاد به،وهي ظاهرة بارزة في الخطابة العربية[2].

[1] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج3، ص168.

[2] – ينظر:محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 91.

لذلك كان للشاهد الشعري في خطب **الشيخ البشير الإبراهيمي** حضوره البارز سواء أكان من الشعر العربي القديم أم من الحديث نظرا لما يحمله من تأثير على السامع العربي؛إذ نجده يضمّن خطبه من الأبيات ما يناسب سياقه الحجاجي، وكأنها جزء من نص الخطبة، وفي هذا دليل على براعته الحجاجية، وهنا نشير إلى أن شواهده الشعرية قليلة إذا ما قونت مع الشواهد القرآنية أو الحديث النبوي، وفيما يلي عرض لبعض الأمثلة:

نلمح في خطبته الافتتاحية لمسجد سطيف تمثّله بالشعر القديم، حين يقول منوها بفضائل الاجتماع: "ولا يخفى أنّ هذه البلدة- ولا نكران للحق - تنقصها فضيلة من أمهات الفضائل: وهي الاجتماع المثمر للتعارف وقد فاتها بفوات هذه الفضيلة مجموعة من مجاميع الأدب الغالية، وهي آداب الاجتماع، وفاتها بفوات ذلك كلّه خير عظيم وهو ما يتمتّع به المجتمعون من ثمرات الاجتماع"[1]، ويضيف قائلا: "وهذا في الحقيقة نقص معيب وتقصير شائن خصوصا وهو نقص فيما نستطيع الكمال فيه"[2]، ثم يستدل بقول المتنبي:

ولم أرَ في عيوبِ الناسِ شيئاً *** كنقصِ القادرينَ على التمامِ[3]

استدل **الشيخ البشير** بهذا الشاهد الشعري ليكون حجّة موضحة لقيمة فضيلة الاجتماع الذي فرط فيه أفراد هذا الوطن، على الرغم من قدرتهم على تحقيق ذلك، فكان حالهم شبيها بحال من ذمهم المتنبي؛أي الذين لم يتداركوا النقص وهم قادرون

(1) - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص92.

(2) - المرجع نفسه،ج1،ص92.

(3) - المتنبي، ديوانه، ج2،شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص1161.

على التمام، ولذلك كان استشهاد الشيخ البشير بهذا البيت مناسبا للمقام (ذم التقاعس) ومؤثرا في السامعين؛ فهو أبلغ في تصوير حقيقة ثمرة الاجتماع.

ومن استشهاداته الحجاجية بالشاهد الشعري ما نجده في خطبة ذكرى المولد النبوي؛حيث يستحضر بعض الأبيات الشعرية لأحمد شوقي التي تمجد هذه الذكرى، يقول البشير: "أيها السادة قرأت كثيرا ممّا فاضت به قرائح الشعراء من القصائد المولدية التي يذكرون بها المسلمين في نشأة دينهم ويجددون عهدهم فيها بميلاد نبيهم...وما زلت أحس بأن في نفسي تشوفا إلى شيء وراء تلك المبالغات، وهو بيان سرّ عظمة هذه الليلة من بين الليالي، إذ تملأ هذه العظمة نفسي، ولا أتبيّن أسبابها وبواعثها حتّى قرأت قول شوقي في مطلع قصيدته الهمزية"[1]، قال أحمد شوقي:

ولدَ الهدَى فالكائِناتُ ضياءُ***وفَمُ الزمـــانِ تبسمٌ وثَنَاءُ[2]

ثمّ عقب **الشيخ البشير** على هذا البيت قائلا: "قرأت هذا البيت، ووقفت عنده أتأمّله، وأستجلي معانيه فمحا كلّ ما في نفسي من آثار المبالغات،بل محا كلّ ما في ذاكرتي من جميع ما قرأته من القصائد المولدية وكشف لي هذا البيت الواحد سرّ عظمة هذه الليلة وفضلها على الليالي"[3]،لقد عدّ بيت شوقي – في نظره– أبلغ تصويرا لهذه المناسبة العظيمة التي شهدت ميلاد خير البرية الذي جاء بالهدى والنور؛ فمحى ظلام الشرك والكفر ولذلك فـ"إنّ بيت شوقي يصوّر الحالة السائدة في العالم قبل الإسلام، وأنّها ضلال في ضلال، وظلام في ظلام وكذلك كانت هي، ويصور ولادته

(1) – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1،ص315.

(2) – أحمد شوقي، الشوقيات، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط12، 1992، ج1، ص34.

(3) – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص316.

(صلى الله عليه وسلم) ولادة للهدى الماحي لذلك الضلال، فهي ليلة لم يولد فيها رجل"[1]، ومن هنا نلحظ براعة **الشيخ البشير** الحجاجية بتوظيفه التداولي الدقيق لهذا البيت شوقي في هذه المناسبة الاحتفالية وذلك يدل على استثماره لمعطى المقام العاطفي الذي مكنه من توجيه شواهده الشعرية وجهة حجاجية.

إجمالا نقول: إنّ احتجاج الشيخ البشير بالشاهد الشعري مرده إلى وظيفته الحجاجية التي تتجلى من خلال بنيته (الشاهد الشعري) الإيقاعية، والبيانية، والمعجمية التي تمكن الخطيب من التأثير في السامع، فضلا عن كونه يحيل كبقية النصوص السابقة على نص مشترك ثقافي وحضاري؛ لأجل ذلك فهو يحظى بالقبول والتصديق.

ومن الشاهد الشعري ننتقل إلى شاهد الحكمة.

4- شاهد الحكمة:

تستمد الحكمة حجيتها انطلاقا من قائلها الذي يحظى قوله بالقبول لدى الناس، وفي التراث العربي نلمح كثيرا من الحكم التي اشتهر أصحابها، نذكر على سبيل المثال:حكم علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- وغيرها.

استشهد **الشيخ البشير** ببعض الحكم في سياق خطبه على الرغم من قلتها مقارنة بشواهده القرآنية و النبوية والشعرية، من ذلك ما جاء في خطبته الجُمعيّة، يقول:"عباد الله :لو كانت كلمة الحكمة توازن بالذهب أو تقدّر بالمال و النشب؛ لكانت كلمة علي بن أبي طالب، هي تلك الكلمة... وهي قوله -رضي الله عنه- قيمة كلّ إنسان ما

[1] - المرجع نفسه،ج1، ص316.

يحسنه"[1]؛يؤكّد **الشيخ البشير**-في هذا القول-على أهمية الاجتهاد في العمل الذي تتفاوت درجة وقيمة الناس بالإحسان فيه،وقد استدل بقول علي - رضي الله عنه- الذي تضمن حكمة تدلل على قيمة الإنسان من خلال ما يتقنه من الأعمال، فالمرء يقاس بأعماله وأفعاله وليس بأقواله فقط، وهنا نلحظ دقة احتجاج **الشيخ البشير** بتلك الحكمة ضمن سياقها التداولي، وموضعها المناسب لها.

و إلى جانب الحكمة يستحضر في خطبه الوقائع التاريخية.

5-الوقائع التاريخية:

تكتسب الوقائع التاريخية حجّيتها انطلاقا من كونها وقائع حجاجية يسلم بها السامع، وتحضى لديه بالقبول، ولهذا وظفها **الشيخ البشير** ضمن خطبه؛ لتكون حجّة يستمد منها الحقائق، يقول شكري فيصل: "وقد أعانت البشير ثقافته الإسلامية على أن تكون أحداث التاريخ الإسلامي ووقائعه ماثلة في ذهنه، يستخدمها ويستثمرها فيما يريد أن يتحدث عنه"[2]،إذ نجده في خطبته التي ألقاها بمناسبة تكريم الشيخ عبد الحميد بن باديس يحتفي بهذا اليوم السّعيد،وينتقل من الحاضر إلى الماضي، قائلا:"إنّ أحدا من المسلمين لا يجهل يوم بدر ولا يجهل-وإن كان عاميا- أثره في ظهور التوحيد على الشرك"[3]، يشبه **الشيخ البشير** هذا اليوم العظيم الذي أنهى فيه الشيخ ابن باديس ختم تفسير كتاب الله بواقعة بدر التي سميت بيوم الفرقان؛لأنّها فرقت بين الحق والباطل ولهذا استشهد بتلك الغزوة ليثبت عظم هذا اليوم المشهود "الذي يختم فيه

---

[1] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ،ج1،ص64، ينظر: الجاحظ،البيان والتبيين،ج1،ص83.

[2] - شكري الفيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي(مقال)،ضمن كتاب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص186.

[3] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ،ج1، ص361

إمام سلفي تفسير كتاب الله تفسيرا سلفيا؛ليرجع إليه المسلمون إلى فهمه فهما سلفيا"[1] في أمة "تقطعت صلاتها بالسلف وضعف تقديرها للقرآن"[2]، وهذا هو الجامع بين الواقعتين، أعني: ختم تفسير ابن باديس وواقعة بدر، وقد أراد من خلال انتقاله إلى الماضي أن يخلق مقاربة بين حاضر اليوم وواقع الأمس المشرق؛ لجعل السامع يلامس بنفسه تلك الحقيقة التي أقرها الشيخ ويقتنع بها، وهنا نلمح ذكاء البشير الإبراهيمي الذي يبرز في حسن توظيفه لتلك الشواهد التاريخية.

نخلص مما تقدم ذكره:

•أنّ الحجاج هو الأساس الذي تقوم عليه الخطابة.

• يتمحور حجاج خطابة البشير الإبراهيمي حول تحقيق ثلاثة أهداف حجاجية، تمثل مقومات الأمّة الجزائرية، هي: المحافظة على الهوية الجزائرية، وإصلاح الدين، والمحافظة على اللغة العربية.

• تنوعت الحجج النصية التي وظفها البشير الإبراهيمي من حجج مبتكرة، مثل: القياس والمثل، وحجج جاهزة مثل: الشاهد القرآني والحديث، والشعر، والحكمة.

• نجح البشير الإبراهيمي في توجيه حججه النصية الجاهزة (المتنوعة) وجهة حجاجية تخدم أغراضه السابقة من خلال استثماره لمعطيات المقام.

• تميزت الحجج النصية التي وظفها البشير الإبراهيمي بحمولتها الإقناعية التي كان لها تأثير في السامع.

---

[1] – المرجع نفسه،ج1، ص362.

[2] – المرجع نفسه،ج1، ص362.

• للحجة النصية – عنده– قيمة بارزة في خطبه، ومرد هذا إلى مصادرها التي تحظى بالقبول والتسليم لدى المتلقي كالقرآن، والحديث، والشعر.

• برزت الحجج النصية في خطبه بشكل متناسق ومنسجم وفقا للخطة الحجاجية التي سار عليها.

• يعدّ البشير الإبراهيمي محاججا من طراز فريد، مكّنه من أن يقنع متلقيه ويستميله إلى الهدف الذي كان ينشده.